التصـوف

اعلم نَوَّر الله تعالى قلبي وقلبك، وأكمل فيه حبي وحبك أن التصوف نتيجة العقل وثمرة العلم، وفائدة العمر ولباب الدين، وروح الإسلام، لأنه الاشتغال بعبادة الله تعالى، والتعلق بحضرته العليَّة، وهو الغاية الكبرى من وجود الأكوان، وخلق الإنسن والجانّ. والمقصود في الحقيقة من بعثته صلى الله عليه وسلم، وبعثة سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[1]].

وقال عز وجل: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[2]].

لا يتقاعد عنه إلا ضعيف الإرادة قليل الهمة.. سئل ذو النون المصري عن السفلة من الناس. فقال: هو الذي لا يعرف الطريق ولا يتعرفه، العلم بدونه وسيلة بلا غاية، كما أن الخوض فيه قبل العلم شر جناية.

ولهذا كان السرى السقطى يقول للجنيد رضي الله تعالى عنهما: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث.. إشارة إلى أن من تصوف بعد العلم بالله تعالى وبالأحكام الشرعية العملية فقد أفلح وأتى البيوت من أبوابها؛ ومن تصوف قبل تحصيل العلم فقد خاطر بنفسه، وتنكب طريق السداد والفلاح، وفي حديث معاذ رضي الله تعالى عنه الدال على شرف العلم وطلب تعلمه، قال ﷺ: "والعلم إمام العمل والعمل تابعه"..

---

[1] سورة الذاريات الآية: ٥٧

[2] سورة الأنبياء الآية: ٢٥

ومن تراجم البخاري في صحيحه: العلم قبل العمل لقوله تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ[1]]. فبدأ بالعلم قبل العمل.

ومن المأثور عن بعض السلف ونسبه الشيخ زروق في قواعده للإمام مالك رضي الله تعالى عنه: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

ما هو التصوف؟

أهل كل علم هم أدرى الناس به، وأصحاب الحق الطبيعي في بيان ماهيته وتصوير حقيقته.. وقد قال الإمام مالك: "لكل علم رجال، وإنما يؤخذ كل علم عن أهله".

فلننظر إذاً إلى كلام الصوفية بيان حقيقة التصوف، ولنضرب صحفاً عن كل ما لا يوافقه من كلام غيرهم، سواء كان قائله غربياً أم شرقياً.

وبمراجعة كلام الصوفية في هذا المقام، نجد أن للتصوف عندهم **إطلاقين**:

الإطلاق الأول: باعتبار كونه علماً من العلوم، ويحد على هذا بأنه: علم يعرف به أحوال النفوس وكيفية رياضتها، وطرق علاجها، ومنشأ أمراضها، وتطوراتها..

وهو معنى قول العارف الدردير رضي الله تعالى عنه في شرح "خريدته" إنه علم بأصول يعرف به صلاح القلب وسائر الحواس.

وهذا العلم في الحقيقة، هو الحكمة التي يقول الله تعالى فيها: [وَمَنْ يُؤْتَ

---

[1] سورة محمد عليه الصلاة والسلام الآية: ١٩

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا[1]]. . وهو الفقه في الدين الذي يقول فيه رسول الله ﷺ كما في الصحيح "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". وكلما أخلص العبد في عبادة ربه، ومجاهدة نفسه تفجرت ينابيع هذا العلم من قلبه.

والإطلاق الثاني للتصوف باعتبار كونه عملاً ورياضة للنفس، ويحد على هذا- كما في شرح الخريدة- بأنه: الأخذ بالأحوط من المأمورات، واجتناب المنهيات والاقتصار على الضروري من المباحات.

وقيل: هو الخروج عن كل خلق دني، والدخول في كل خلق سني.

وقيل: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً أو باطناً.

وقيل: صفاء المعاملة مع الله تعالى:

وقيل: اشتغال العبد بما هو أولى في الوقت.

وقال الغزالي: هو- تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. أي اعتقاد أنه لا ينفع ولا يضر.

وقيل: كمال الإنسان بالإسلام والإيمان والإحسان.

والأقوال المأثورة في التصوف كثيرة جداً. حتى قيل: إنها تبلغ زهاء الألفين، ومرجعها كلها إلى الإخلاص في عبادة الله، والإستعانة به دون سواه..

وهو المذكور في مفتتح الفرقان المنصوص عليه في أم القرآن: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[2]].

فإن جميع ما ذكره الصوفية وقرروه، وندبوا إليه أنفسهم وأتباعهم يدور

---

[1] سورة البقرة الآية: ٢٦٩

[2] سورة الفاتحة الآية: ٥

على هذين الأصلين، ويتفرع منهما.

وقال شيخنا العارف الدومي رضي الله تعالى عنه: الطريق هو العمل بالعلم.. وقال مرة: هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

وقال العارف الدرديري رضي الله تعالى عنه في "تحفة الإخوان" إن طريق القوم هو تقوى الله تعالى التي أمرنا بها في كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ، ورتب عليها سعادة الدارين، وحصول المعارف والأسرار الإلهية، والتكفل بالرزق من غير مشقة، وحكم سبحانه أن كل من تمسك بها أكثر من غيره كان عند الله أكرم.

قال الله تعالى: [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ[1]].

وقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ[2]].

وقال: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[3]].

وقال: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ[4]]. وانظر إلى قوله تعالى: [أَتْقَاكُمْ]، ولم يقل أعلمكم، ولا أنسبكم، ولا أصحبكم، ولا أجمعكم. أي أكثركم صحبة للأخيار وجمعاً للمال.

---

[1] سورة البقرة الآية: ٢٨٢

[2] سورة الحديد الآية: ٢٩

[3] سورة الطلاق الآية: ٣٢

[4] سورة الحجرات الآية: ١٣

طريقة قويمة

فهل يرتاب منصف في أن هذه الطريقة الصوفية طريقة قويمة، وخطة راشدة حكيمة.

ولله در الإمام ابن السبكي، حيث قال في خاتمة كتابه (جمع الجوامع) الذي طبقت شهرته الآفاق: ونعتقد أن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم.

إي والله طريق مقوم. موزون بميزان العقل والشرع، يرمي إلى تخليص الأعمال من الحظوظ والأغراض الفاسدة، ويهدف إلى تكييف الحياة الإنسانية تكييفاً دينياً صالحاً. سداه ولحمته تقوى الله تعالى ومراقبته وذكره باللسان والجنان. وغايته حضور القلب معه عز وجل في كل حال.. وليس من شرطه ولا المقصود منه إماتة الصفات البشرية وقطع حظوظ النفس بالكلية. كما توهم بعض القاصرين حتى زعموا أن التصوف مذهب خيالي لا يمكن تطبيقه عملياً، ولا يتأتى تحقيقه واقعياً.. كلا.. بل التصوف مذهب واقعي معقول.. لا يصادم الفطرة الإنسانية، ولا يتحدى الطبيعة البشرية، ولا يتنافى مع سنن الحياة وقواعد الاجتماع، ولا يشترط فيه، ولا يقصد منه إلا التحرر من سلطان النفس الأمارة بالسوء، والتخلص من طغيان الشهوة والغضب. وهذه هي الحرية الحقيقية، والكمال الإنساني، المحمود عقلاً وشرعاً.

وهذا معنى ما قاله أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: ليس التصوف بالرهبانية، ولا بأكل النخالة والشعير، ولكن بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. كما قال تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ[1]].. ومعنى قوله أيضاً: التصوف تدريب النفس على العبودية،

---

[1] سورة السجدة الآية: ٢٤

وردها لأحكام الربوبية.

وقال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم). لا يلزم من وجود الخصوصية– الولاية– محو صفات البشرية.

وسئل أبو مُحَمَّد سهل بن عبدالله التستري وهو من كبار مشايخ الصوفية عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته.! فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولابد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى أن ينسيه ذلك، ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.. قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين فإني أخاف عليه أن لا يسلم، وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجود الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره.. فتأمل قوله ﷺ الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع.

ومن النفائس قول بعض المحققين: الولي يكون محفوظاً عن النظر لنفسه فلا يدخله عجب، ويكون مسلوباً من الخلق– يعني من النظر إليهم بحظ– فلا يفتنونه ويكون محفوظاً من آفات البشرية وإن كان طبع البشرية قائماً معه باقياً فيه فلا يستحلي حظاً من حظوظ البشرية إستحلاء يفتنه عن دينه، واستحلاء الطبع قائم معه باق.

فما أحكم الصوفية، وما أعرفهم بأحوال النفوس ودخائلها.

هـمُ الرجـال وعيـب أن يقـال لمـن لم يتصـف بمعـاني وصـفهم رجـل

متى نشأ التصوف؟

أما التصوف العملي الذي هو عبارة عن مجاهدة النفس، والاشتغال بالعمل الصالح، والتعلق بالله عز وجل مع الزهد في الدنيا، وعدم الاعتزاز بمظاهرها الخلابة فلا خفاء في أنه طلع مع الإسلام في أفق واحد، ونشأ معه في

الوقت الذي نشأ فيه، يدلك على هذا ما ثبت مستفيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، من اجتهادهم في عبادة الله تعالى، وتفانيهم في محبته، وإنابتهم إلى دار الخلود، ومجافاتهم عن دار الغرور. مع ما كانوا عليه من الأحوال الشريفة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الكريمة.

وها كم الأدلة القاطعة الدالة على ذلك، قال الله تعالى: [وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ[1]].

وقال عز شأنه: [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ[2]].

وقال تعالى: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ[3]] إلى غير ذلك من الآيات.

وأخرج الشيخان عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!، فقال: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً". وأخرجا أيضاً عن أبي هريرة ﵁ قال: "ما شبع آل مُحَمَّد ﷺ من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض."

وقوله ﵁: حتى قبض، فيه رد على من يزعم أن هذا وقع منه ﷺ للضرورة وقلة الأقوات، إذ لا يخفي أنه في أخريات حياته عليه الصلاة والسلام

---

[1] سورة الكهف الآية: ٢٨

[2] سورة النور الآية: ٣٧

[3] سورة الفتح الآية: ٢٩

قد فتحت عليه الفتوح، وكثرت لديه الغنائم.

وأخرج أحمد وابن حبان في صحيحه. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر ﷺ، وهو على حصير قد أنر في جنبه فقال يا رسول الله: لو اتخذت فراشاً أوثر– ألين– من هذا فقال: "مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب، سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة، ثم راح وتركها".

وعن القاسم بن مُحَمَّد بن أبي بكر قال: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ﷺ– لأنها عمته وهي التي ربته في حجرها بعد موت أبيه– أسلِّم عليها، فغدوت يوماً عليها، فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ قوله تعالى: [فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ[1]]، وتبكي وتدعو. فلما رأيت ذلك، ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي. ثم أرجع، ففرغت من حاجتي، ورجعت وهي كما هي، تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال أبو الدرداء ﷺ: لولا ثلاث ما أحببت البقاء يوماً واحداً، الظمأ لله بالهواجر– يعني الصوم– والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقي أطايب التمر.

وعن زيد بن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يصلي من الليل ما شاء أن يصلي، حتى إذا كان أخر الليل، أيقظ أهله للصلاة.

ووصف الحسن البصري أصحاب رسول الله ﷺ فقال: والله لقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أم ذهبت إلى ذا.

---

[1] سورة الطور الآية: ٢٧

هذا حال رسول الله ﷺ، وحال أصحابه الكرام. ومنه يعلم أن التصوف العملي غير حادث في الملة الإسلامية وإنما هو منوط بنشأة الإسلام الأولى. بل الواقع أن التصوف بهذا المعنى موجود في كل ملة، وجاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ هم جميعاً لم يبعثوا إلا لتزكية الطباع وتهذيب النفوس وصرفها عن شهوات الدنيا الفانية.

وأما التصوف باعتباره علماً فإذا نظرنا إليه من حيث أصله ومادته الأساسية نجد أن تاريخه مرتبط بتاريخ الإسلام أيضاً. للقطع بأن مداره– كما سبق– على الكتاب والسنة فإنه لا يمكن أن يكون خارجاً عنهما بأي اعتبار.

قال الإمام ابن عبدالسلام في "قواعد الأحكام" ليست الحقيقة وهي علم التصوف– خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال. والعزوم والنيات.. وعن الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسُّنة.. وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدى به في هذا الأمر.

وأما إذا نظرنا إليه من حيث ما وقع فيه من الكلام عن الخواطر والأذواق والبحث عن أحوال النفوس؛ وبيان شهواتها، ودسائسها الخفية، ونحو ذلك.. فشأنه شأن بقية العلوم الأخرى كالفقه وأصوله، والتوحيد، والمعاني.. التي لم تقع العناية بالنظر فيها والبحث في مسائلها وفروعها وتقرير المصطلحات الخاصة بها إلا بعد عصره ﷺ.

والمعروف أن أول من تكلم في علم التصوف بهذا الاعتبار الحسن البصري ﷺ. قال أبو سعيد ابن الأعرابي لم يبلغنا أن أحداً تكلم في هذه المذاهب– يعني أحوال النفوس– ودعا إليها وزاد في بياتها وترتيبها، وصفات أهلها مثل الحسن البصري. وفي (الفوت) لأبي طالب المكي: وكان الحسن أول من أنهج سبيل هذا

العلم وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له يا أبا سعيد، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه.. وروي أنه لما دخل الإمام علي رضي الله تعالى عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول لا يقص في مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم في هذا العلم فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه– ذكره في (القوت) أيضاً– وهذا صريح في أن الحسن كان يتكلم في هذا العلم بالمسجد، مع أن صاحب (القوت) نفسه ذكر في موضع آخر أن الحسن كان حين يتكلم في هذا العلم يخلو مع إخوانه وأتباعه من النساك والعبَّاد فيحمل على أنه كان أو لا يتكلم فيه بالمسجد ثم بدا له أخيراً أن يخلو به مع الخاصة من أتباعه.. وعلى كل حال فالعناية بعلم التصوف لم تظهر بشكل واضح إلا في القرن الثالث من الهجرة النبوية حيث انتصب الإمام أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي والإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنهما لتشييده، ونصرة مبادئه، والإستشهاد على ذلك بنصوص الكتاب والسنة.. وقد اقتفى أثرهما في ذلك كل من جاء بعدهما من أساطين هذا العلم. كل يجتهد على قدر وسعه؛ ومبلغ علمه في نصرته وتمهيد قواعده وبيان أصوله، وآدابه بطريق المذاكرة والمدارسة أو بطريق الكتابة والتأليف إلى زمننا هذا. كما هو الشأن في العلوم والفنون الأخرى.

الفرق بين الصوفي وغيره

فإن قلت: ما الفرق بين الصوفية وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين وسائر طوائف المسلمين؟.. قلت: أما في الأصل، وبالنظر لعهد السلف الصالح فلم يكن هناك صوفية وغير صوفية. حيث كان الكل على

طريق الهداية والحق، مقبلين على الله تعالى، مشتغلين بعبادته، معرضين عن الدنيا بقلوبهم وبواطنهم، وإن زاولوها بظواهرهم [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ[1]].

فلما جنح الناس إلى مخالطة الدنيا، وأخذوا يتزحزحون عن الهدى النبوي شيئاً فشيئاً، ودب الضعف إلى القلوب، وتسرب الفساد إلى الأعمال– اختص المقبلون على العبادة القائمون على محاسبة أنفسهم، ومراعاة قلوبهم، المحافظون على سنة رسول الله ﷺ والسلف الصالح رضوان الله عليهم بإسم الصوفية.

قيل لعبدالواحد بن زيد: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على فهم السنة، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم.. هم الصوفية.

فخاصة الصوفية وميزتهم مراعاة أنفاسهم مع الله تعالى، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة، وصرف اهتمامهم لعمل الباطن، وحسن السريرة، وعدم التطلع لملاحظة الخلق.. فمن لم يكن كذلك فأعماله عندهم كالهباء، لا يثبتونها ولا يعولون عليها وأما غيرهم من بقية الطوائف فإنما يعولون على ما ظهر من الأعمال، وغاية جهدهم أن تكون أعمالهم موافقة لظاهر الشرع. فما أنكره الشرع ظاهراً أنكروه، وما مدحه مدحوه. ولا اهتمام لهم في الغالب بأمر السرائر وأحوال القلوب.

وهذا معنى قول رويم رضي الله تعالى عنه– وكان من كبار المشايخ– كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق. وطالب الخلق

---

[1] سورة النور الآية: ٣٧

أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقته، ومداومة الصدق يعني أن الناس قد صرفوا همهم وبذلوا جهدهم في مراعاة الظواهر، والمحافظة على رسوم العبادات والمعاملات وأشكالها فقط.

ولكن الصوفية طالبوا أنفسهم- مع المحافظة على ظواهر الأوامر والنواهي- بحقائقها وثمراتها المقصودة منها، ولزوم الصدق مع الله تعالى، والتبرِّي من الحول والقوة في عموم الأوقات.

وفي كتاب "القواعد" لسيدي أحمد زرّوق رضي الله تعالى عنه قال: نظر الصوفي أخص- أي أعلى- من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط الحرج، والصوفي يعتبر ما يحصل الكمال، وأخص من نظر الأصولي- يعني الباحث في علم التوحيد- لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي يعتبر ما يتقوى به اليقين، وأخص من نظر المفسِّر وصاحب فقه الحديث لأن كلاً منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتوه، وإلا- يعني وإن لم يثبت ما أثبته المفسرون وشراح الحديث- فهو باطني خارج عن الشريعة فضلاً عن المتصوفة.

فحظُّ الصوفية من ميراث رسول الله ﷺ أوفر الحظوظ لأنهم اتبعوه في أقواله، فقاموا بما أمرهم به، ووقفوا عما نهاهم عنه. ثم اتبعوه في أحواله، من الجد والاجتهاد في العبادة، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، والتخلي عن الحظوظ، ثم اجتهدوا في التأسي به في أخلاقه من الحلم والصبر، والتوكل، والخشية، والمحبة، والرضا جهد الطاقة إذ لا يمكن أن يلحقه ﷺ في أعماله وأحواله وأخلاقه مخلوق كائناً من كان.

قال في المباحث:

حجـــة مـــن يـــرجح الصـــوفية　　علـــى ســـواهم حجـــة قويـــة

هـــم أتبـــع النـــاس لخـــير النـــاس　　مـــن ســـائر الأنام والأناســـي

تبعـــه العـــالم في الأقـــوال　　والعابـــد الناســـك في الأفعـــال

وفيهمـــا الصـــوفي في الســـباق　　لكنـــه قـــد زاد بالأخـــلاق

هذا هو التصوف الإسلامي الذي نفهمه، ونعتقده، ونتشرف بالانتساب إليه، مع تقصيرنا في التحلي بحلية أهله.

أما ما عليه أهل البطالة والجهالة الآن، وقبل الآن بزمن طويل، من الصخب والصياح، والاحتيال على جمع الحطام الفاني، وأكل أموال الناس بالباطل، مع التهاون في الأوامر الشرعية والآداب الإسلامية فليس من التصوف ولا من الدين في شيئ.

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه　　ولا بكـــاؤك إن غـــنى المغنـــونا

ولا صـــياح ولا رقـــص ولا طـــرب　　ولا اختبـاط كـأن قـد صـرت مجنـوناً

بـل التصـوف أن تصـفو بـلا كـدر　　وتتبـــع الحـــق والقـــرآن والـــدينا

وأن تـــرى خائفـــاً لله مكتئبـــاً　　علـى ذنوبـك طـول الـدهر محـزوناً

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

إن قلت: على الرغم مما حاولت من تيسير أمر التصوف، وتقريب معناه، وجعله مذهباً واقعياً، لا يصادم الفطرة، ولا يتحدى الطبيعة البشرية فإنا نراه مقاماً عزيزاً، ومذهباً صعباً، وطريقاً وعراً، كثير العقبات والمشقات..

لا يقدر على سلوكه إلا بترك كثير من محبوبات النفس ومألوفاتها.. من حب المال والجاه وتوابعهما.. فكيف هان على القوم سلوك هذا الطريق؟

وكيف أمكنهم القيام بمراعاة أنفاسهم، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة، وعكوفهم على سُنة رسول الله ﷺ؟ وكيف أطاقوا المواظبة على مجاهدة نفوسهم إلى هذا الحد؟!!

قلت: أما أنه مقام عزيز وطريق وعر، فمما لا خفاء فيه. وبهذا صرح الأشياخ قديماً وحديثاً.. لا ليثبطوا عنه الهمم، ولا ليصرفوا عه الناس.. بل ليعد له المريد عدته، ويأخذ له أهبته.

قال عبدالله بن خفيف: قلت لرويم! أوصني. فقال: ما هذا الأمر– يعني التصوف– إلا ببذل الروح. فإن دخلت فيه على هذا، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

وقال أبو البركات الدردير في أول تحفته: واعلم يا أخي أن طريق القوم عزيزة لا يهتدى فيها– أي لا يعرفها ولا يثبت فيها– إلا المختار..

ولهذا كان أهل هذا الطريق أقل الناس عدداً. وإن كانوا أعظمهم قدراً، وأرفعهم محلاً..

وأما كيف هان على القوم سلوكه.. وكيف أمكنهم القيام بمجاهدة نفوسهم، ومراعاة أنفاسهم.. إلخ، فقد سئل إمام الطائفة أبو القاسم الجنيد مثل هذا السؤال. قيل له كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟ فقال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل، وبعدها عن الأمل.. قيل له: فيم يصل العبد إلى هذا؟ فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.. فجعل القلب المفرد وهو المشغول بالله دون سواه المحشو بخالص التوحيد وصافي المعرفة هو الذي يبعث الإنسان على التوبة والخوف والرجاء وقصر الأمل، وهو الذي يهون عليه مشقة المجاهدات

والمكابدات، ويجعله لا يرى صعباً دون مطلوبه بل يستعذب العذاب في نيل مرغوبة.

فيا حبذا الأسقام في جنب طاعتي أوامر أشواقي وعصيان عذالي

ويامـا ألـذ الـذل في عـز وصـلكم وإن عـز. مـا أحلـى تقطـعَّ أوصـالي.

وفي الإحياء: أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى، واليوم الآخر، والجنة والنار. وهذا اليقين يهيج بالضرورة الخوف من النار، والرجاء في الجنة.. والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكارة فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف.. ولذلك قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار يرجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام.

والخلاصة: أن النفس الإنسانية خصائصها عجيبة، وآثارها مدهشة، في جوهرها كنوز مكنوزة من المعارف والأسرار، وفي فطرتها طاقات كامنة– علمية وعملية– لا نهاية لها، ومتى غلب عليها شيء من المحبة أو الخوف أو الرجاء شغلها واستولى عليها وهاجها إلى الجد والعمل، وحملها على ركوب الصعاب وتحمل المشاق.

والصوفية قد عرفوا هذا.. وفطنوا له.. وعلموا أن الرياضة والتمرين وكثرة المزاولة للعمل تكسب الإنسان قوة ومهارة، وتجعل الأمور المتكلفة بمثابة الجبلة والطبع.. البدن يتمرن على الحركة والعمل.. والنفس تتمرن على الأخلاق والآداب.. والعقل يتمرن على الغوص في دقائق العلم وغوامض المسائل.

فالإنسان بدنه، ونفسه، وعقله كل ذلك قابل للرياضة والتمرين، ورؤية العباد، وصحبة العارفين أصحاب الأنفاس العالية تحيي الهمم، وتبعث النشاط.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى مُحَمَّد بن واسع– كان من كبار الزاهدين العباد– فعملت على ذلك أسبوعاً.

ومتى علم الله تعالى من العبد الإخلاص في نيته، والصدق في محبته جذبه إليه وشغله بذكره وطاعته حتى يصير له ذلك بمثابة القوت، لا يصبر عنه لحظة.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذ بي لأعذته".

ومعنى كنت سمعه الذي يسمع به.. إلخ– شغلت بمحبتي، وذكري، وطاعتي حواسه وجوارحه، فلا تبقى له حاسة ولا جارحة تتصرف إلا لله وبالله تعالى.

وهذا معنى قول الله عز وجل: [أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى[1]] أي جعلها خالصة لتقواه عز وجل، مؤهلة للقرب من حضرته بمنع ما يشغلها من العلائق، وإزالة ما يقطعها من الشهوات التي هي في الحقيقة أجنبية عنها طارئة عليها.. وذلك لأن القلوب إنما خلقت مستقيمة سليمة من الأمراض عندما التذت بمشتهيات الجسد بواسطة الحواس التي يسبق وجودها في الإنسان، وتظهر آثارها فيه قبل كمال العقل وإشراق نوره، فإذا كمل العقل وتأيد بنور الشرع، وأسعفه الله تعالى بتوفيقه أمكنه أن يقمع هذه الشهوات،

---

[1] سورة الحجرات الآية: ٣

ويقف بها عند حد الحكمة والشرع.

ثم إن القوم لم يدخلوا في هذا الأمر دفعة واحدة. بل دخلوا فيه بالتدريج وأوغلوا فيه برفق.. عملاً بقول نبيهم الحكيم صلوات الله وسلامه عليه: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق". وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى".. واحتالوا على النفوس احتيالاً، وجذبوها إلى الكمال شيئاً فشيئاً، حتى استقامت على أمر الله تعالى ونهيه، واطمأنت إلى عبادته وذكره فنالوا بذلك الخير العميم والربح العظيم. ومن جرب عرف، ومن صدق في مجاهدة نفسه رأى منها العجب العجاب.

قال صاحب المباحث:

واحتـل علـى الـنفس فـرب حيلـه أنفـــع في النصـــرة مـــن قبيلـــه

والله تعالى المسئول أن يُيسر علينا أسباب طاعته، ويفتح لنا أبواب رحمته. ويجعلنا من عباده الصالحين.

والحمد لله رب العالمين.. وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.